الطـــريق إلى الله

شبهات حول التصوف

للأستاذ السيد محمد الحافظ التيجانى

(٣)

الشبهة الخامسة : الزعم بأن الطرق تفرقة وشيع فى الدين . وهذا خطأ فقد اختلف الصحابة والتابعون وتابعو التابعين وكانوا مع ذلك أحباباً فى الله إخوانا فى الله مع أن خلافهم فى أركان الإسلام العملية من صلاة وصيام وحج، وفى المعاملات، وقد أجمعوا على أن هذا الخلاف فى الأمور الاجتهادية لا يضر فى الدين، لأن عقيدتهم عقيده واحدة .

وهذا الخلاف — بإجماع علماء المسلمين — فى الحلال والحرام، لا يجعل أولئك المختلفين فرقا مختلفة، ولا شيعا متعادية، حيث لا يفسق بعضهم بعضا ولا يكفر بعضهم بعضا.

وقد اختلف الصحابة فى فهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين أظهرهم، وأقر هذا الخلاف، لأن كلا منهم لا يريد إلا إطاعة أمره صلى الله عليه وسلم .

وإنما اعتبروا من شذ فى العقيدة عن هؤلاء الجماعة، أو كفرهم، أو فسقهم، أو ضللهم، فهو الكافر أو الفاسق أو الضال، وما زالوا بخير ولله الحمد .

ولا يعقل عالم أن يحتمل العلماء خلاف الأمة فى الفروع إلا الصوفية، مع أنهم مقيـــدون بأصول الفقه المعروفة فى مذاهب الأئمة المتبعة، ولم يخرجوا عن إجماع المسلمين لا فى كبيرة ولا فى صغيرة، فيسعهم ما وسع الأمـــة من الاختلاف فى الأمور الاجتهادية، متى كان المرجع كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولنحكم العلم الصحيح فى الخلاف الذى بين الطرق، ولنزنه بميزان الشرع الشريف، لا بميزان الأهواء، هل

هناك خـــلاف فى العقيدة بين أهل طريقة وأخرى ؟ الجواب : لا . كلهم على عقيدة واحـــدة ، هى العقيدة المعروفة عن خير القرون ، وقد بينها السلف الصالح من الفقهاء والمحدثين وعلماء التوحيد والصوفية ، ليس بينهم فيها خلاف ، وخلاصتها توحيد الله عز وجل ، وتنزيهه عن كل نقص وتشبيه ، وهم يؤمنون بكل ما جاء عن الله ، على مراد الله عز وجل ، وكل ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهل أحد من أهل الطرق أحل حراما مجمعا على تحريمـــه ؟ أو حرم حلالا مجمعاً على حله ؟ حاشا وكلا ومعاذ الله .

وهل بينهم وبين أنفسهم خلاف فى الفروع تتسم به طريقة دون أخرى ؟

كلا . فإنهم متفقون حتى فى الفروع فإن بعض البلاد تكون فيها طرق مختلفة ولكن مذهبهم فى الفقه مذهب واحد. فهم متفقون فى الأصول ، متفقون فى الفروع ، شأنهم شأن جميع الأمة .

وإذاً فماذا خلافهم ؟

الجواب على ذلك :

أنه لاخلاف بينهم ، وكل ما فى الأمر أن الشرع الشريف أطلق للأمة الاختيار فى النوافل بحسب الطاقة . والحديث الصحيح فى سؤال الأعرابى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما بين له الفرائض ، هل على غيرها ؟ قال لا إلا أن تطوع .

فدعوى أن الصوفية فرقوا الدين كذب واختلاق، ودليل النزق والطيش وعدم الفهم . وإذا كانت عقائد أهل الطرق واحدة ، وحلالهم وحرامهم واحد ، فاختيار بعضهم من نوافل الخير غير ما اختار الآخر ، لا يضر بإجماع علماء المسلمين .

وما رأينا شيوخ الطرق تكلموا عن طريق أخرى ورجالها إلا بكل خير واحترام ، وكلام أى شيخ من السادة الصوفية حجة عند أهل الطرق قاطبة ، وكل يستدل فى كتبه بأقوال جميع أهل الطرق ، ولا عبرة بمنافسة التلاميذ القاصرين الذين لم يعرفوا بعد أصول الطريق ، فليس فى ذلك أى حجة على أساس الطريق ، فإنهم خالفوا قواعد الطريق التى انتسبوا إليها ، ومن تمكن فى أى طريق سلم لسائر الطرق ومن درس التصوف والطرق

الصوفية دراسة نزيهة ، عرف أنها مدارس أخلاقية لتهذيب النفوس وترويضها عمليا على الطاعة والبلوغ بها إلى أقصى درجات المعرفة ، وأيقن أن بدايتها جميعا التوبة ، وسيرها الترقى فى مدارج الشريعة بالتقرب بنوافل الخير ، ونهايتها المشاهدة المطابقة للشرع وأن كلا اختار سبيلا يراه أسهل فى الوصول إلى الغاية ، أو يراه أليق بحاله مع احترامه للجميع .كاختلاف المدرسين فى مدرسة واحدة ذات فصول عدة فى تدريس مقرر واحد . فلكل طريقته فى التعليم والكتاب واحد .

أحاديث تصنع الحياة

عن أبى ذر رضى الله عنه . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليس من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة فى كل يوم طلعت فيه الشمس ، قيل : يارسول الله من أين لنا صدقة تتصدق بها ؟ فقال :

إن أبواب الخير لكثيرة : التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .. وتميط الأذى عن الطريق ، وتسمع الأصم ، وتهدى الأعمى ، وتدل المستدل عن حاجته ، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث ، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف ، فهذا كله صدقة منك على نفسك .

رواه ابن حبان فى صحيحه ، والبيهقى مختصرا وزاد فى رواية : وابتسامك فى وجه أخيك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم من طريق الناس صدقة ، وهديك الرجل فى أرض الضالة لك صدقة .